بَين يَدَى البَحث

كتب السيرة النبوية تملأ المكتبة الإسلامية . فما معنى التكرار فيها إذا لم نأت بجديد؟ وسأدع الإجابة على هذا السؤال يستنتجها القارئ نفسه من خلال المقدمة.

عشت مع السيرة النبوية منذ نعومة أظفارى ، بل كنت أحرص على حفظها عن ظهر قلب ، وكانت المتعة الكبرى فى حياتى من خلالها ، أتعمق فى معانيها ، وأتربى على أحداثها وتأخذ روعتها بلبى . ومن أجل ذلك ، وحرصاً على أن تكون جزءًا من كيانى ما كنت أدع كتاباً فى السيرة ، أو مصدراً من مصادرها إلا وأسارع إلى اقتنائه وقراءته بنهم شديد . وكانت الأحلام تراودنى أن أكتب فى السيرة منذ سن المراهقة . وتجاوز الأمر مرحلة الحلم إلى التنفيذ الواقعى ، وأمضيت خمس سنوات وأنا أكتب فى كل جزئية من جزئياتها ، لكنى مع ذلك بقيت أنتظر فرصة سانحة من العمر أتفرغ فيها تماماً للسيرة ، وتحول الأعمال والعلاقات الاجتماعية دون ذلك .

ولا أزال أنتظر !

أما فكرة المنهج الحركى للسيرة ، فقد انبثقت فى الفكر انبثاقاً يختلف عن الأصل الذى كنت أفكر فيه .

لا أزال أذكر فى بداية الستينات عندما طلع علينا الشهيد سيد قطب رحمه الله بكتابه ـ معالم فى الطريق ـ وكان نقطة تحولٍ حساسة فى الفكر الحركى الإسلامى. وقفت مليّا أمام هذه الفقرة :

(والسمة الثانية فى منهج هذا الدين : هى الواقعية الحركية . . . فهو حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية ، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التى تليها فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة ، كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة . . . والذين يسوقون النصوص المختلفة بكل مرحلة منها . . . الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً، ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللاً، ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية . ذلك أنهم يعتبرون كل نصٍ منها كما لو كان نصاً نهائيّا

يمثل القواعد النهائية فى هذا الدين ، ويقولون ـ وهم مهزومون روحيًا وعقليًا تحت ضغط الواقع اليائس لذرارى المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان ـ : إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع أو يحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلاً بتخليه عن منهجه ، وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً ، وتعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد ! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته ، ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة ، بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة ، أو قهرها حتى تدفع الجزية ، وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة ، تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها)[1] .

وقفت أمام هذه الفقرة كثيراً وأنا أقرأ الكتاب أو أشرحه ، وتساءلت فى نفسى عن هذه الواقعية الحركية: ما هى مراحلها؟ وما هى الوسائل المناسبة لكل مرحلة ؟

وما أحوجنا إلى كتاب يوضح هذه المراحل، وهذه الوسائل. فيضع نقاطاً علامة للدعاة إلى الله، يتعرفون فيها على خطوات السير، كما فعل الشهيد فى معالمه.

موضوع مثير حقاً ، وعدم فهم هذه المراحل والتعرف عليها ، وفهم الوسائل المناسبة يجعل الخلاف عميقاً بين الدعاة المسلمين وأبناء الحركة الإسلامية. وللإجابة على هذا السؤال، لم يكن عندى إلا دراسة السيرة دراسة واضحة تحدد المراحل المتتابعة فيها ، وسمات كل مرحلة ؛ لأن السيرة النبوية هى التطبيق العملى للإسلام ، وهى الصورة الأنموذج لإقامة دولة الإسلام . فإذا توضحت هذه المراحل ، وتبينت هذه السمات ، كفينا المؤونة ، وتوحد خط السير ، وانتفى دور الاجتهاد الشخصى .

لكن يبرز سؤال دقيق :

ما هو مدى إلزامية هذه المراحل وهذه الوسائل للجماعة المسلمة ، وهى تشق طريقها لإقامة دولة الإسلام فى الأرض ؟ وهل الحركة الإسلامية متعبدة بهذه المراحل ما لها من فكاك عنها ؟ أم أن تلك المراحل قد انتهت مع النصوص النهائية للإسلام ، وأصبحت منسوخة هى وأحكامها فى الواقع الإسلامى ؟

ولا يخفى أبداً أن خلافاً كبيراً بين حركتين إسلاميتين حول هذا الموضوع جعل كل واحدة منهما تسير فى خط مستقل ، وذلك من خلال هذين الفهمين :

---

(١) معالم فى الطريق ص ٥٨ .

الفهم الأول : يرى أن التقيد بهذه المراحل لا مناص منه حتى فى الحد الزمنى. وهى تقرر أن رسول اللّه ﷺ عاش دعوة ثلاثة عشر عاماً . ثم أقام دولته، فهى مقيدة بهذا العمر من الدعوة ، وعليها أن تقيم دولة الإسلام بعد ثلاثة عشر عاماً من عمرها . وهذا فهم خطير ولا شك ، فالمدى الزمنى فى الأصل تقدير ربانى ، وليس جهداً بشرياً فقط ، واللّه تعالى قد قال لنبيه : ﴿ **فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ . فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الزخرف: ٤١ ـ ٤٣] .

ومن آثار هذا الفهم كذلك موضوع النصرة ، وأنه لا يجوز استعمال السلاح قبل قيام الدولة ، إنما تقوم الدولة على أساس طلب النصرة من سدنة المجتمع الجاهلى ، وإلى أن يفتح صدر أحد هؤلاء للدعوة أو لنصرة هذه الدعوة وهو على شركه ينتظر الدعاة قيام دولة الإسلام ، فالحركة الإسلامية معذورة فى عدم الدخول فى المواجهة المسلحة ، وقد أدى حمل هذين المبدأين معاً ـ العمر الزمنى والنصرة ـ إلى تناقض عجيب فى المواقف ، وإلى تزعزع فى الثقة بصحة هذه المبادئ .

الفهم الثانى : إننا إذا تركنا العمر الزمنى جانباً وهو مرتبط بقدر اللّه أولاً ، وسنته فى نصره عندما ينضج الدعاة ويغدون مؤهلين للخلافة فى الأرض ـ نستطيع أن نقول: إن المنهج الحركى للسيرة ملزم للدعاة فى خطهم الجهادى لإقامة دولة اللّه فى الأرض ، وذلك أننا مأمورون باقتفاء سيرة الرسول ﷺ :

﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٢١].

والأسوة تبدو واضحة أكثر ما تبدو من خلال السيرة العملية للنبى ﷺ ، وأى اعتساف فى مراحل هذا المنهج لا يوصل إلى الغاية ، والتجارب الكثيرة التى خاضتها الحركات الإسلامية على مدار التاريخ تؤكد هذا المعنى ، فما من حركة إسلامية قامت ، وأقامت منهج اللّه فى الأرض إلا اعتمدت التنظيم السرى فى بداية الأمر ، ثم انطلقت إلى إعلان فهمها الحركى للإسلام ، من خلال الحكمة والموعظة الحسنة ، ثم واجهت المجتمع المنحرف جاهلياً كان أو فاسقاً ، وتسنمت سدة الحكم ، واعتمدت القوة للحفاظ على المبدأ من الحرب المسلحة التى يشنها أعداؤه عليه . بينما بقيت قضية اعتماد السلاح والقوة فى مرحلة الدعوة أمراً

اجتهادياً ، متقيداً بطبيعة الحرب مع العدو أو الخصم .

وإذا كان الأمر مجال خلاف فى الاجتهاد وللمسلمين خلافتهم ودولتهم التى يفيؤون إليها ، فليس الأمر كذلك والمسلمون نتفاً مبعثرة فى الأرض يحكمون بغير شريعة اللّه ، وإذا كان تكوين الجماعة ـ مع قيام دولة الإسلام ـ محل خلاف ونظر حول الثورة على الأمير الفاسق ، فليس هو محل خلاف ، والأمير يحكم علناً وصراحة بغير شريعة الإسلام .

« إلا أن تروا كفراً بواحاً ، لكم فيه من اللّه تعالى برهان » .

ولنتساءل أكثر وأكثر: ما فائدة دراسة المنهج الحركى للسيرة ؟ ولأجيب على هذا السؤال أستأذن الأخ القارئ لأحدثه عن انطباعى عن سور القرآن مع « ظلال القرآن » ودونه .

لقد كنت أقرأ السور الطوال فى القرآن ، وأخص بالذكر الزهراوين البقرة وآل عمران، فلا أكاد أجد خطّا يربط بين جزئياتها،وأضيع فى متاهاتها، تماما مثل رجلٍ دخل فى بلدة ولم يتعرف على مخططها، فهو يجوب فيها كلها دون أن يصل إلى بغيته ،أو الدار التى يريدها،أو رأى بناء ضخماً،لم ير هندسته التى قام عليها، فلا يدرك شيئاً من جمال البناء وفن المعمار فيه،ولكنى عندما قرأت فى «ظلال القرآن» أحسست بعظمة البناء وروعته،أحسست بأن سورة البقرة التى تستغرق قرابة جزأين ونصف، كان محورها الرئيس هو البناء الداخلى للأمة من خلال العبادات والتشريعات، وعرض عدوها الأول بنى إسرائيل ؛لتتعرف على طبيعة هذا العدو،وعلى تجربته حين كلف بالخلافة فى الأرض،وكيف انحرف عن رسالته.

بهذين الخطين الرئيسين أمكن أن نعيد كل جزئية فى هذه السورة العظيمة إلى مكانها فى المخطط ، وفعلاً قدم سيّد لنا ـ رحمه اللّه ـ المنهج الحركى فى القرآن . فلكل سورة هدف عام ،وهدف خاص ، ومحور تدور عليه أحداث هذه السورة ، والذى يستعرض هذا المخطط الكلى للسورة ، يستوعب بعدها كل أجزائها فى مكانها المناسب لها. ويكاد يكون سيّد ـ رحمه الله ـ قد انفرد من بين المفسرين جميعاً بهذه الميزة، وبخاصة فى الطبعة الثانية المنقحة من الظلال . هذا المنهج الذى اكتشفه فى آخر عمله فى الظلال فى الطبعة الأولى ، كما يقول الأخ الخالدى: (وفى الأجزاء الثلاثة الأخيرة من الظلال بدأ يبرز عند سيّد قطب الاتجاه الحركى الذى تولد عنده نتيجة لتجربته العملية فى الحركة بالإسلام،ونتيجة لنظراته

المتجددة فى القرآن ، وكان لابد من أن يعيد النظر فى الظلال، ويعيد كتابته على أساس من اتجاهاته الحركية الجديدة ، فكان أن أصدر سيّد قطب الطبعة المنقحة من الظلال، وهى الطبعة الثالثة وقد أصدرتها دار إحياء الكتب العربية فى القاهرة .

كتب سيّد قطب الأجـزاء العشرة الأولـى من الطبعة الثالثة المنقحة بتركيز شديد، وكان يقف عند الآيات طويلاً ، ويسجل حولها كل خواطره ، ويتعرض للحديث عما تشير إليه من أمور فى العقيدة أو الفقه أو التشريع أو المعاملات السياسية أو الاقتصاد أو التاريخ أو الفلسفة أو التربية أو الاجتماع أو غير ذلك ، ويقف طويلاً على إيحاءاتها الحركية ، ويسجل للعاملين للإسلام موحياتها ويرسم لهم على ضوئها معالم الطريق .

وقد كان سيّد قطب يتمنى أن يعيد كتابة باقى الأجزاء من الثالث عشر إلى السابع والعشرين على هذا المنهج الجديد ، ويترك الأجزاء الثلاثة الأخيرة لأنها كتبت على ضوء هذا المنهج ، ولكن الطغاة عجلوا بالقضاء عليه قبل أن يحقق هذه الأمنية . . .) [1] .

إذن هناك شىء اسمه المنهج الحركى للقرآن ، كتب سيّد ظلاله على ضوئه ، وأنا أحاول فى هذه الصفحات ـ على قلة بضاعتى ـ أن أتناول المنهج الحركى للسيرة ـ الذى يحدد معالم الطريق وسماته ـ بحيث تأخذ الجزئيات فى السيرة مكانها الطبيعى من خلال المرحلة، ولاتضيع معالم المرحلة فى متاهة الجزئيات المبعثرة ، كالذى يضيع فى المدينة الضخمة دون أن يطلع على مخططها .

وما أحوجنا إلى الحديث عن المناهج ، نحدد بها معالم السير ، وما أفقر مكتبتنا الإسلامية إليها على كثرة ووفرة الكتب الإسلامية اليوم التى تغزو المكتبات كل يوم .

لدينا تلك المحاضرة لسيّد ـ رحمه الله ـ : « فـى التـاريخ فكرة ومنـهاج » و « معالم فى الطريق » ولدينا لأخى الشهيد ، لمحمد قطب ، المفكر الإسلامى العظيم : « منهج التربية الإسلامية » ومنهج الفن الإسلامى، وكتابه المخطوط ـ الذى نرجو الله تعالى أن يرى النور: « منهج للتاريخ الإسلامى »[2]. وكتب أخرى

---

(١) الشهيد الحى سيد قطب ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٢) عاد فطبعه تحت عنوان : كيف نكتب التاريخ الإسلامى ؟ وقد صدر منذ عدة سنوات .

يصعب عرضها فى هذه العجالة[1]. لكنها بالتأكيد لا تتجاوز أصابع اليدين، هى كل ما نملكه فى هذه المجالات، التى تنطلق كلها من النظرة الكلية الشاملة؛ لتعيد بعد ذلك كل الأجزاء إلى مكانها الطبيعى فى تخطيط هندسى بديع.

وأخيراً ما أحوجنا إلى : المنهج الحركى للسنة النبوية .

هذا النتاج الضخم من الحديث الذى يمثل أعظم ما قاله البشر فى هذا الوجود، لا يزال متناثراً تناثر النجوم فى السماء تبلغ أعداد أحاديثه عشرات الألوف . وفى بعض مجموعاته خمسين ألف حديث ، ولكنه غير مترابط البناء ،غير محكم البنيان . وأن يأتى العالم الإسلامى والمفكر الإسلامى ، الذى ينظر إلى بناء هذا التجمع بناءً مرتبطاً بمراحل الدعوة، ومراحل الدولة ، ويحدد معالمه وخطوطه ، هو أمل ، وما ذلك على المؤمنين ـ إن شاء الله ـ ببعيد .

وفى ختام هذا الحديث أود أن أعتذر سلفاً إلى الأخ القارئ ، عن أى فهم خاطئ قد فهمته فى السيرة ، وبخاصة فى المقارنات بين حركتنا الإسلامية اليوم ومسيرتنا الإسلامية ، وبين مراحل السيرة من قبل ومنهجها الحركى ، فهذه فهوم ونظرات ، يختلف فيها الحكم ، لكن أود أن يشاركنى الأخ القارئ فى أنه لابد لنا من المنهج الحركى للسيرة النبوية، نسير على هداه ، ولعل أخاً يأتى من بعدى ، يعمق هذه الخطوط ، ويحدد هذه المراحل تحديداً أدق وأعمق ويكون الاتجاه كله لإيضاح معالم البناء الجديد . فالسيرة النبوية نبع ثَرٌّ ، ومعمل ضخم لابد أن يحسن الاستفادة منه بتحديد مجاريه ، وتوزيع نتاجه ، ويبقى أكبر المعالم للطريق الطويل .

والله نسأل أن يجنبنا عثرات الفكر ، وزلات القلم ، وأن يهدينا ويهدى بنا إلى سواء السبيل ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، وفى صحيفة حسناتنا يوم القيامة إنه سميع مجيب . إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) لقد انتشرت بحمد الله الكتب التى تبحث فى الأصول والمناهج وأصبحت متوفرة فى المكتبات الإسلامية .

مَاذَا نَعنى بالمنْهَج الحَركى ؟

المعنى به هو : الخطوات المنهجية التى تحرك بها النبى ﷺ منذ بعثته حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى . وهذا يقتضى منا متابعة المراحل خطوة فخطوة ؛ لنكون على بينة من أمرنا، ونحن نتابع السير فى حركتنا الإسلامية ، فنقتفى خطى حركته عليه الصلاة والسلام انطلاقاً من قول الله عز وجل : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ** ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ولا شك أن متابعة هذه الخطوات والمراحل هو أمر تعبدى قبل كل شىء ، نصل به إن اقتدينا بهداها إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى .

وهو من جهة ثانية تبصرة للحركة الإسلامية فى خطها السياسى للوصول إلى أهدافها فى إقامة حكم الله فى الأرض .

ونعتقد أن هذا المنهج الحركى هو ربانى التوجيه ، فالله تعالى يسدد نبيه فى خطواته كلها ، وليس هو وليد رد الفعل من الظروف الطارئة التى تواجهه .

وبعد هذه التوطئة البسيطة يمكننا أن نتصور المراحل المتتابعة لهذا المنهج ، وسمات كل مرحلة على حدة دون أن نخوض فى تفاصيل أحداث السيرة النبوية إلا بمقدار ما تقتضيه الضرورة فى إيضاح هذه المراحل وسماتها .

أما المراحل التى نتصورها لهذا المنهج ، فيمكن أن تحدد فى خمس مراحل ونطلق عليها اصطلاحاً التسميات التالية ، ولا مشاحة فى الاصطلاح :

المرحلة الأولى : سرية الدعوة وسرية التنظيم .

المرحلة الثانية : جهرية الدعوة وسرية التنظيم .

المرحلة الثالثة : إقامة الدولة .

المرحلة الرابعة : تأسيس الدولة وتثبيت دعائمها .

المرحلة الخامسة : الجهاد السياسى وانتصار الرسالة .

وإذا كان لنا أن نحدد بداية كل مرحلة ، ونهايتها ، فإننا نجد ما يلى :

١ ـ **سرية الدعوة**: وتبدأ من البعثة النبوية إلى نزول قوله تعالى: ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ [الشعراء : ٢١٤].

٢ ـ **جهرية الدعوة وسرية التنظيم** : وتنتهى فى العام العاشر للبعثة .

٣ ـ **مرحلة إقامة الدولة** : وتنتهى فى بداية العام الأول للهجرة .

٤ ـ **مرحلة تأسيس الدولة** : وتنتهى بصلح الحديبية .

٥ ـ **الجهاد السياسى وانتصار الرسالة** : وتنتهى بوفاة الرسول ﷺ . وغنى عن البيان أن نهاية كل مرحلة هى بداية المرحلة التى تليها . ولنبدأ الطريق مع أول مرحلة .